

تفسير البحر المحيط

@ 195 @ الّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ
لَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَرِدْ بِخَيْرٍ فَلَا
رَادَ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (خطاب لأهل مكة يقول : إن كنتم
لا تعرفون ما أنا عليه فأنا أبينه لكم ، فبدأ أولاً بالانتفاء من عبادة ما يعبدون من
الأصنام تسفيهاً لآرائهم ، وأثبت ثانياً من الذي يعبدوه وهو الله الذي يتوفاكم . وفي ذكر
هذا الوصف الوسط الدال على التوفي . دلالة على البدء وهو الخلق ، وعلى الإعادة ، فكأنه
أشار إلى أنه يعبد الله الذي خلقكم ويتوفاكم ويعيدكم ، وكثيراً ما صرح في القرآن بهذه
الأطوار الثلاثة ، وكان التصريح بهذا الوصف لما فيه من التذكير بالموت وإرهاب النفوس به
، وصيرورتهم إلى الله بعده ، فهو الجدير بأن يخاف ويتقي ويعبد لا الحجارة التي تعبدونها
. وأمرت أن أكون من المؤمنين لما ذكر أنه يعبد الله ، وكانت العبادة أغلب ما عليها عمل
الجوارح ، أخبر أنه أمر بأن يكون من المصدقين بالله الموحدين له ، المفرد له بالعبادة ،
وانتقل من عمل الجوارح إلى نور المعرفة ، وطابق الباطن الظاهر . قال الزمخشري : يعني
أن الله تعالى أمرني بما ركب فيّ من العقل ، وبما أوحى إليّ في كتابه . وقيل معناه إن
كنتم في شك من ديني ومما أنا عليه ، أثبت أم أتركه وأوافقكم ، فلا تحدثوا أنفسكم
بالمحال ، ولا تشكوا في أمري ، واقطعوا عني أطماعكم ، واعلموا أنني لا أعبد الذين تعبدون
من دون الله ، ولا أختار الضلالة على الهدى كقوله : { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا يُوَفِّقُ اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * }
الَّذِينَ كَفَرُوا * لَا أَعْبُدُكُمْ مَّا تَعْبُدُونَ { وأمرت أن أكون أصله : بأن أكون ، فحذف
الجار وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف الجارة ، مع أن
وإن يكون من الحذف غير المطرد وهو قوله : أمرتك الخير { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ }
انتهى يعني بالحذف غير المطرد وهو قوله : أمرتك الخير ، إنه لا يحذف حرف الجر من
المفعول الثاني إلا في أفعال محصورة سماعاً لا قياساً وهي : اختار ، واستغفر ، وأمر ،
وسمى ، ولبى ، ودعا بمعنى سمى ، وزوج ، وصدق ، خلافاً لمن قاس الحذف بحرف الجر من
المفعول الثاني ، حيث يعني الحرف ووموضع الحذف نحو : برئت القلم بالسكين ، فيجيز
السكين بالنصب . وجواب إن كنتم في شك قوله : فلا أعبد ، والتقدير : فأنا لا أعبد ، لأن
الفعل المنفي بلا إذا وقع جواباً انجزم ، فإذا دخلت عليه الفاء علم أنه على إضمار
المبتدأ . وكذلك لو ارتفع دون لا لقوله . .

ومن عاد فينتقم ا منه أي : فهو ينتقم ا منه . وتضمن قوله : فلا أعبد ، معنى فأنا مخالفكم . وأن أقم يحتمل أن تكون معمولة لقوله : وأمرت ، مراعى فيها المعنى . لأن معنى قوله أن أكون كن من المؤمنين ، فتكون أن مصدرية صلتها الأمر . وقد أجاز ذلك النحويون ، فلم يلتزموا في صلتها ما التزم في صلات الأسماء الموصولة من كونها لا تكون إلا خبرية بشروطها المذكورة في النحو . ويحتمل أن تكون على إضمار فعل أي : وأوحى إليّ أن أقم ، فاحتمل أن تكون مصدرية ، واحتمل أن تكون حرف تفسير ، لأن الجملة المقدره فيها معنى القول وإضمار الفعل أولى ، ليزول قلق العطف لوجود الكاف ، إذ لو كان وأن أقم عطفاً على أن أكون ، لكان التركيب وجهي بياء المتكلم ومراعاة المعنى فيه ضعف ، وإضمار الفعل أكثر من مراعاة العطف على المعنى . والوجه هنا المنحى ، والمقصد أي : استقم للدين ولا تحد عنه ، وكنى بذلك عن صرف العقل بالكلية إلى طلب الدين . وحنيفاً : حال من الضمير في أقم ، أو من المفعول . وأجاز الزمخشري أن تكون حالاً من الدين ، ولا تدع يحتمل أن يكون استئناف